جدلية عربية الإسلام وتعريب المسلمين وإكراهات العولمة

د. أحمد سعدي

جامعة حسيبة بن بوعلي–الشلف (الجزائر)

مقدمة:

لا توجد لغة ارتبطت بالدين وبمصداقيته وهوية معتنقيه كاللغة العربية التي ارتبطت بماهية الإسلام وهوية المسلمين بعرى وثيقة لا انفصام لها، حتى أصبحت عنوانا للإسلام والمسلمين ويعتبر الجهل بها من العوامل المباشرة للجهل بالإسلام وضعف أو عدم الالتزام به. وقد امتدت اللغة العربية وانتشرت مع الإسلام، فحيثما وجد الإسلام وُجدت اللغة العربية، وحيثما فقد الإسلام فقدت اللغة العربية. وأغلب الدول والبلدان العربية إنما عربها الإسلام، وقد كان ابن باديس رحمة الله عليه يقول معتزًّا بإسلامه وليس بعروبته: "أنا أمازيغي عرّبني الإسلام." وهذه الجملة لها دلالتها في جدلية عربية الإسلام ودوره الفعال في تعريب المسلمين. فقد خرجت اللغة العربية من مسقط رأسها ومهدها الأول تقدم القرآن الكريم هدية وهداية من الله رب العالمين إلى الناس أجمعين مهما كانت أجناسهم وجنسياتهم وأوطانهم ولغاتهم.

ولو تواصل المدّ والفتح الإسلامي واستمرّ ولم يتوقف توقفًا مؤسفًا ومخزيا لتعرّب العالم. ولقد تعرّبت إسبانيا في أوروبا اكثر من ستة قرون ثم طرد منها المسلمون شر طردة فتبعتهم اللغة العربية ورحلت معهم من إسبانيا وأصبحت أثرًا بعد عين. وقد أخطأ العثمانيون حينما طبقوا سياسة التتريك وحاربوا سياسة التعريب وأرادوا أن يخرجوا اللغة العربية من الهوية الإسلامية وكأنهم أرادوا أن يخرجوا الروح من الجسد فضروا الإسلام والمسلمين، وتركوا في الأمة العربية جرحا ما زال ينزف ولن يندمل إلى الأبد بتضييعهم للخلافة الإسلامية. لا يعز الإسلام أبدا عندما تَنْذَلّ اللغة العربية أو تَنْشَلّ، هذه قاعدة مطردة وقانون مستمر إلى يوم القيامة.

الإسلام ليس دينا للعرب وحدهم، ولكن القرآن الكريم قرآن باللغة العربية وحدها، والصلاة التي هي فرض عين على كل المسلمين تؤدى باللغة العربية وحدها كما أدّاها وبينها محمد صلى الله عليه وسلم. وكما يغير الإسلام أسماء الأعاجم ويعرّبها كذلك يغير ألسنتهم ويعربها، وعندما يدخل الناس في الإسلام يكتسبون هوية جديدة من مقوماتها الأساسية اللغة العربية... وقد تعرّب كل المسلمين من غير العرب لممارسة الشعائر الدينية، وللاستماع إلى القرآن الكريم أو قراءته أو فهمه.

واكتسبت اللغة العربية هذه المكانة وأدّت وما زالت تؤدي هذا الدور العظيم في الحياة والحضارة لارتباطها الوثيق والدائم بالإسلام وبالهوية الإسلامية. وللفقهاء آراء ومواقف صريحة في هذه المسألة التي كثر النقاش حولها في عصر ازدهار الثقافة الإسلامية، وقد تم السكوت عليها والتغاضي عنها في عصرنا، لأن الدفاع عن اللغة العربية من هذا الجانب يعتبر من الإيديولوجيا ومن التعصب أو الانتماء الديني اللذين يتبرأ منهما الآكاديميون، ولأن التصاق اللغة العربية بالإسلام وبالهوية الإسلامية أصبح اليوم في ظل الصراع الجيوسياسي العالمي تهمة للغة العربية لن تجدي في خدمتها والدفاع عنها بل يعتبر عائقا من العوائق التي تعترض سيرورتها وتهدد مستقبلها ومصيرها. ومع ذلك تبقى هذه العلاقة الجدلية قائمة وتبقى الأسئلة تطرح نفسها وتبحث عن الإجابة، مثل: هل الإعراض عن اللغة العربية هو إعراض عن الله وعن الإسلام ؟ وهل الصد عن تعليم اللغة العربية وعن عولمتها وعن التعريب هو صد عن سبيل الله وعن الإسلام؟ وهل محاربة اللغة العربية أو إهمالها محاربة للقرآن الكريم وإهمال له؟ إلى كثير من مثل هذه التساؤلات وأشباهها.

نص البحث:

لا توجد لغة ارتبطت بالدين وبمصداقيته وهوية معتنقيه كاللغة العربية التي ارتبطت بماهية الإسلام وهوية المسلمين بعرى وثيقة لا انفصام لها، حتى أصبحت عنوانا للإسلام والمسلمين. ويعتبر الجهل بها من العوامل المباشرة للجهل بالإسلام وضعف أو عدم الالتزام به. وقد امتدت اللغة العربية وانتشرت مع الإسلام، فحيثما وجد الإسلام وُجدت اللغة العربية، وحيثما فقد الإسلام فقدت اللغة العربية. وأغلب الدول والبلدان العربية إنما عربها الإسلام، وقد كان ابن باديس رحمة الله عليه يقول معتزًّا بإسلامه وليس بعروبته: "أنا أمازيغي عرّبني الإسلام." وهذه الجملة لها دلالتها في جدلية عربية الإسلام ودوره الفعال في تعريب المسلمين. فقد خرجت اللغة العربية من مسقط رأسها ومهدها الأول تقدم القرآن الكريم هدية وهداية من الله رب العالمين إلى الناس أجمعين مهما كانت أجناسهم وجنسياتهم وأوطانهم ولغاتهم. ولو تواصل المدّ والفتح الإسلامي واستمرّ ولم يتوقف توقفًا مؤسفًا ومخزيا لتعرّب العالم. ولقد تعرّبت إسبانيا في أوروبا اكثر من ستة قرون ثم طرد منها المسلمون شر طردة فتبعتهم اللغة العربية ورحلت معهم من إسبانيا وأصبحت أثرًا بعد عين. وقد أخطأ العثمانيون حينما طبقوا سياسة التتريك وحاربوا سياسة التعريب وأرادوا أن يخرجوا اللغة العربية من الهوية الإسلامية وكأنهم أرادوا أن يخرجوا الروح من الجسد فضروا الإسلام والمسلمين، وتركوا في الأمة العربية جرحا ما زال ينزف ولن يندمل إلى الأبد

بتضييعهم للخلافة الإسلامية. لا يعز الإسلام أبدا عندما تُذَلّ اللغة العربية أو تُشَلّ، هذه قاعدة مطردة وقانون مستمر إلى يوم القيامة.

الإسلام ليس دينا للعرب وحدهم، ولكن القرآن الكريم قرآن باللغة العربية وحدها، والصلاة التي هي فرض عين على كل المسلمين تؤدى باللغة العربية وحدها كما أدّاها وبينها محمد صلى الله عليه وسلم. وكما يغيّر الإسلام أسماء الأعاجم ويعرّبها كذلك يغير ألسنتهم ويعربها، وعندما يدخل الناس في الإسلام يكتسبون هوية جديدة من مقوماتها الأساسية اللغة العربية...وقد تعرّب كل المسلمين من غير العرب لممارسة الشعائر الدينية، وللاستماع إلى القرآن الكريم حفظه، أو قراءته أو فهمه. واكتسبت اللغة العربية هذه المكانة وأدّت وما زالت تؤدي هذا الدور العظيم في الحياة والحضارة لارتباطها الوثيق والدائم بالإسلام وبالهوية الإسلامية. وللفقهاء آراء ومواقف صريحة في هذه المسألة التي كثر النقاش حولها في عصر ازدهار الثقافة الإسلامية، وقد تم السكوت عليها والتغاضي عنها في عصرنا، لأن الدفاع عن اللغة العربية من هذا الجانب يعتبر من الإيديولوجيا ومن التعصب أو الانتماء الديني اللذين يتبرأ منهما الأكاديميون، ولأن التصاق اللغة العربية بالإسلام وبالهوية الإسلامية أصبح اليوم في ظل الصراع الجيوسياسي العالمي تهمة للغة العربية لن تجدي في خدمتها والدفاع عنها بل يعتبر عائقا من العوائق التي تعترض سيرورتها وتهدد مستقبلها ومصيرها. ومع ذلك تبقى هذه العلاقة الجدلية قائمة وتبقى الأسئلة تطرح نفسها وتبحث عن الإجابة، مثل: هل الإعراض عن اللغة العربية هو إعراض عن الله وعن الإسلام ؟ وهل الصد عن تعليم اللغة العربية وعن عولمتها وعن التعريب هو صد عن سبيل الله وعن الإسلام؟ وهل محاربة اللغة العربية أو إهمالها محاربة للقرآن الكريم وإهمال له؟ إلى كثير من مثل هذه التساؤلات وأشباهها.

1.الهوية الماهية والمفهوم: لابد في البداية من الاتفاق على مفهوم الهوية ومعرفة ماهيتها، قبل تحديد نوعيتها ومكوناتها الأساسية. الهوية صفة متعلقة بالإنسان. لا يوجد إنسان بلا هوية وقد يفقد الإنسان هويته وقد يضيعها وقد يغيرها لسبب من الأسباب...والهوية من حيث اللفظ الاصطلاحي مصدر صناعي مركب من ضمير الغائب المفرد (هو) بإضافة ياء وتاء. ولم يسمع استعمال المصدر الصناعي سوى من ضميرين فقط في النحو العربي، وهما الهوية من (هو) والأنانية من (أنا).والعجيب أن علماء النفس صاغوا من هذين الضميرين هما الهو والأنا، والعجيب أيضا أن هذين المصطلحين بينهما ترابط وثيق في المفهوم...

وكلمة الهوية تعني من هو من الناحية المعنوية ويقصد بها تعريف الإنسان من حيث انتماؤه وأصالته ونسبته إلى مجتمع أو مجموعة إنسانية ما متميزة عن غيرها بخصائص ومواصفات هي

إيجابية ومحترمة من قبل ذلك المجتمع أو تلك الجماعة أو المجموعة...ولهذا نعرف الهوية بأنها الخصائص التي يكتسبها الإنسان من الجماعة التي ينتمي إليها نشأة وانتسابا...والإنسان قد عرّفوه بأنه حيوان اجتماعي عاقل. والله تعالى يقول: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير." وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية." فالاجتماع فطرة طبيعية ف الإنسان عزّزها الإسلام بواسطة التشريع الذي يحدد الواجبات ويضمن الحقوق وينقي المعاملات ويرقي الأخلاق ويدعو إلى الأخوة والمحبة والاحترام المتبادل بين جميع أفراد المجموعة. فكل إنسان ينتمي إلى مجموعة أو عدة مجموعات، فهو ينتمي إلى أمة أو شعب أو قبيلة ومجتمع صغير أو كبير وأسرة أو حزب أو طائفة أو فريق أو فئة أو طبقة، أو مجموعة من الناس، يكون منهم ويشترك معهم في المواصفات والخصائص التي يمتازون بها وتميزهم عن غيرهم.

وفي التحليل النفسي، يقسم الجهاز النفسي لكل إنسان إلى قسمين هما "الهو" والأنا"، ويقصد بالهو كل الخصائص الوراثية والصفات اللاإرادية التي يكتسبها الفرد من الوراثة أو من المحيط والبيئة مثل اللغة الأم مثلا. يقول سيجموند فرويد: "وصلنا إلى معرفتنا بهذا الجهاز النفسي عن طريق دراسة نشوء الفرد. وأطلقنا على أقدم قسم من أقسام هذا الجهاز النفسي اسم الهو. وهو يجري على كل ماهو موروث، وما هو موجود منذ الولادة، وما هو ثابت في تركيب البدن. وهو لذلك يحوي، قبل كل شيء الغرائز التي تنبعث من البدن والتي تجد أول تعبير نفسي لها في الهو في صور غير معروفة لنا. وتحت تأثير العالم الخارجي الواقعي الذي يحيط بنا نما جزء من الهو نموا خاصا.." [(1)]. فبنية الإنسان النفسية تشتمل على عناصر ومعطيات قديمة جدا ولعلها تكون غير إرادية وغير شعورية تحت تأثير المحيط الخارجي الذي يمثل الهو في شخصية الإنسان وخاصة تأثير الوالدين. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "يولد الولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء هل ترى فيها من جدعاء". وهذا الهو يعتبر من المكونات الخاصة التي لا تتفق مع مكونات المجتمع فلا يدخل في موضوع الهوية. أما إذا كان من المكونات العامة المشتركة والمحترمة بين أفراد المجتمع فيدخل في موضوع الهوية.

وقد ورد في تعريفها أنها:" مقاربة (identite collective)فالهوية هي التعريف الجماعي للفرد مقاربة مجموعة لتتعرف على نفسها كمجموعة متحدة داخليا (تعريف الأصل، تعريف المحل، تعريف المهنة)وهي مصدر جار لحياة المجتمع ونشط المجموعة. إن فهم كيفية تطور وتغير الهويات الجماعية يعني توضيح مبادئ الاجتماع التي تنبني عليها [(2)]"ويواصل قاموس علم الاجتماع تفصيل

مفهوم الهوية قائلا: "ومن النظرة الخارجية للمجموعة يعني تكوين هوية جماعية وجود حركة للاختلاف التي منها تتأكد استقلالية هذه المجموعة. وبالعكس، فإنها تتسبب من الداخل في إحداث التلاحم الذي محى تعدد الانتماءات. وننتقل بهذا من مجموعة معقدة ومنغلقة على نفسها، إلى مجموعة تنظم فيها التمثلات حول مبدإ مهيمن ومعقول. إن الهويات الجماعية بهذا المفهوم لا تتناقض مع التضامنات العريضة: حتى أنها تصبح عوامل للانفتاح على الخارج واعتراف المجموعات فيما بينها ببعضها البعض. وفي الفعل الجماعي يكون التأسيس المرتبط بالهوية اكثر ضرورة في العوامل الاجتماعية من الوعي بالهداف المنشودة." (3)فالهوية تعني وجود تكتل بشري متلاحم يراه من كان خارجه مختلفا، ولكنه من الداخل متشابه جدا ومتماسك ومستقل عن غيره من التكتلات الأخرى ومتميز عنها، بسبب العوامل المشتركة بين أفراده. وهذه العوامل المشتركة هي التي تصنع هويتهم وتعريفهم الجماعي الذي يصدق على كل واحد منهم. وبهذا الشكل تقوم الهوية فعلا بوظيفتين أساسيتين هما وظيفة التميز (الاختلاف) ووظيفة التواصل (الانفتاح).لأن الهوية المنغلقة على نفسها، أو الهوية المدّعاة غير المعترف بها سرعان ما تتلاشى وتزول أو تدمر. وتسعى كل أمة لها هوية إلى أن تكون لها حضارة راقية ومتميزة وبصمة إيجابية واضحة في العالم وفي حياة البشرية. فالهوية القوية دائما ذات طابع نفعي بناء وتمتاز بالدعاية والتشهير لنفسها والحضور الدائم الإيجابي النفعي أمام الآخر.

ولا بأس من سوق تعريف أخر للهوية لم أضطرّ إلى ترجمته يقول:" ولكن بأي شيء تتميز هذه الهوية ؟وحتى نوضح معنى هذا الإشكال، نقدّم بين أيدينا تعريفا أوّليا: ونحن نقصد بالهوية، في ذات الوقت، ما نوجد عليه على نحو فردي، وما نريد أن نكون عليه، على معنى ما يميز خصوصيتنا بالكيفية التي نتمثل بها هذه الخصوصية معًا، وبعبارة أخرى، الكيفية التي يتعين بها كل فرد على حدة، والتي بها يتطابق في ذات الوقت مع معايير عامّة، وينتسب بها إلى جماعات محدّدة." (4)

اللغة العربية والقومية: العرب هم الذين يتكلمون اللغة العربية الفصحى أو إحدى لهجاتها أو عامياتها الإقليمية. وقد ظهرت في العصر الحديث تكتلات سياسية على أساس اللغة ومنها ما يسمى ب"القومية العربية". ولكن القومية العربية التي قامت على أساس التعصب اللغوي والعرقي لم تخدم الإسلام ولا المسلمين ولا الإنسانية ولا الوطن، لأنها كانت أشبه بالنزعات العنصرية وأقرب إليها.

وهؤلاء القوميون لا ينظرون إلا إلى أنفسهم ولا يحسون بأحد سواهم، أي أنها نزعة عنصرية. وهذا ما يعبر عنه بصراحة واحد منهم، أو على الأقل من المؤمنين بالقومية حين كتب قائلا:" ...القومية العربية أن يشعر كل عربي أن الاعتداء على جزء من البلاد العربية أو على شيء من مقدّراتها، أو على فرد من أبنائها، هو اعتداء عليه بالذات. وأن يحمله هذا الشعور والإحساس على التعاون والتعاضد مع إخوانه العرب ضد العدوان، والوقوف في وجه الطغاة المعتدين، وبالتالي، فهل في هذه القومية تطرّف؟، أو رجعية؟،أو مساس بحق أحد؟،أو مساس بحرمة القانون؟،أو منافاة للإسلام والعدالة؟، حاش الإسلام ونبي الإسلام. إنه يبارك التعاون والحرية والجهاد من اجلها في كل أشكاله وصوره ومراحله وأدواره." [(5)]وهذا الكلام السفسطائي المصطنع إيديولوجي ديماغوجي وهو غير صحيح. لأن الإسلام لولم يذم القومية العربية ولو لم يضعها تحت أقدامه كما صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع، ولو لم يعتبرها من دعوى الجاهلية لاعتبره الناس حركة عنصرية ولما دخل فيه الناس من كل الأجناس.

لا وجود للقومية في الإسلام، ومن ادعى أن الإسلام يرحب بها أو يمجدها فقد افترى على الله الكذب، كيف يكون ذلك والله تعالى يقول :"لا تجد قوما يومنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم (الآية)" أي ولو كانوا من قومهم. فاللغة العربية ليست هي الإسمنت المسلح الذي يجمع العرب، فقد كان العرب في الجاهلية قبائل متناحرة يغير بعضها على بعض، وكانوا يستعبدون بعضهم بعضا. بل إن دعاة القومية العربية أنفسهم يعذب بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا ويعتدي بعضهم على بعض. فالعرب مضروبون في صفر بلا إسلام، واللغة العربية مضروبة في صفر بلا إسلام، والقومية العربية مضروبة في صفر بلا إسلام، وكل شيء مضروب في صفر بلا إسلام وإن بدا أن له قيمة فهي مجرد قيمة مادية وقتية.

والقومية العربية ما هي سوى حركة سياسية قائمة على أساس اللغة العربية تستخدم الإسلام وستنجد به لخدمة مصالحها لا لخدمته وخدمة مصالح الناس، وشتان بين من يخدم الإسلام ومن يستخدمه، وشتان بين من يخدم اللغة العربية ومن يستخدمها. والقومية العربية تهمش الإسلام وتضعه في الأدراج حينما لا يساندها أو يعارضها في مسعاها.

وإن كان للقومية العربية من فضل يبيح لها الوجود في الإسلام فهو في إنكار ذاتها لصالح الهوية الإسلامية التي لا تفاخر فيها بالأجناس والأعراق واعتبار ذلك من بقايا الجاهلية. وقد مقت النبي صلى الله عليه وسلم القومية العربية والتعصب للعروبة أو العرب على أي أساس كان" فقد روى

الحافظ بن عساكر قال :جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، فقال: هؤلاء الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل (يعني النبي صلى الله عليه وسلم)،فما بال هذا وهذا (مشيرا إلى غير العرب من الجالسين. فقام إليه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فأخذ بتلابيبه، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فاخبره بما قاله، فقام النبي صلى الله عليه وسلم مغضبا يجر رداءه حتى أتى المسجد، ثم نودي "الصلاة جامعة"، فاجتمع الناس فخاطبهم قائلا: يا أيها الناس، إن الرب واحد، وإن الدين واحد، وليست العربية من أحدكم بأب ولا أم، وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي." (6) فلا يجوز لأي مسلم أن يتعصب لقومه سواء كانوا عربا أو غير عرب. لأن مثل هذا التعصب المقيت يهدم الأخوة الإيمانية التي قررها القرآن الكريم. والهوية الإسلامية وحدها تكفي وتغني

اللغة العربية والشعوب الإسلامية: ليست كل الشعوب الإسلامية شعوبا عربية الأصل واللغة، ولم تكن هناك مشكلة لغوية أمام من يعتنق الإسلام من الأفراد أو الشعوب لأن المهم في الإسلام هو العقيدة والعبادة، ولم يكن هناك إجبار لأحد على ترك لغته الأم لصالح اللغة العربية فأمر اللغة في الإسلام أمر ثانوي وليس من مقاصد الشريعة أي أن الإسلام لم يتعصب أبدا للغة العربية ولا ضد أية لغة أخرى. وقد حافظت شعوب إسلامية كثيرة على لغتها الأصلية مثل الأتراك والأمازيغ وفسحوا المجال أمام اللغة العربية لتعليمها وتعميم استعمالها لأنها لغة القرآن الكريم لمن شاء أن يتعلمها "إن تعدد اللغات في الحياة اليومية والثقافية لم يمنع من محافظة الشعوب الإسلامية على هويتها الدينية. ثم إن عملية تسييس اللغة كان غالبا من تدبير الحكام. ولم يكن أمام المثقفين حينئذ أكثر من خيار واحد هو اختيار السياسي الذي يفضل هذه اللغة أو تلك." (7)واللغة المفضلة لدى المسلمين جميعا في جميع العصور هي اللغة العربية لا نقاش في ذلك ولا جدال، لا يبغضها من المسلمين سوى من رق دينه وضعف إسلامه.

ولم تشكل اللغة العربية أية مشكلة للشعوب الإسلامية غير العربية، وإن كان الجهل بها يعتبر عائقا عن قراءة القرآن الكريم وفهمه." وقد ظلت الأمازيغية بعد الفتح الإسلامي صلبة الموقع على امتداد القرون خارج المراكز الحضرية والمجتمعات الدينية التي أقامها الصلحاء والصوفية. وظلت الأمازيغية في الإطار الثقافي القاعدي لغة الرواية الشفوية. ولكن عملية التعريب اتخذت طريقها بشتى الوسائل عبر الإدارة العربية، وحتى بفضل تبني الأنظمة الأمازيغية للثقافة العربية، كما هو الشأن في الزيريين والحماديين والمرابطين والموحدين وبني عبد الوادي. وما من شك في أن العنصر

الأندلسي قد ساهم بقدر كبير في عملية تعريب بغض المناطق الحضرية وحتى بعض المناطق الزراعية المجاورة لها. (8)

صحيح أن عدم اكتساب اللغة العربية لم يمنع من الحفاظ على الهوية الإسلامية ولكنها أضعفتها ولذلك تعرّبت أغلب الشعوب الإسلامية وخدمت اللغة العربية خدمة لم يقدمها لها العرب أنفسهم. وبالفعل " كانت هناك محاولات من الموحدين والإباضية عبر الشمال الإفريقي لتبليغ الدعوة والثقافة الإسلامية باللسان الأمازيغي. بل إن هناك مؤلفات فقهية وعقائدية وأدبية بالأمازيغية والإباضية وسنية حفظ قليل منها إلى يومنا هذا. ومن الأرجح أن هذه المؤلفات لم تكن تعبيرا عن الحفاظ عن القومية العرقية بقدر ما كانت تعريفا للأمازيغ الذين لا يتقنون أصول العربية بما يلزم معرفته من أبواب الثقافة الإسلامية." (9)وزيادة على الأمازيغية كانت كثير من اللغات الشرقية كالفارسية والتركية وسيلة لتقريب الثقافة الإسلامية لمن لا يتقن اللغة العربية وهم السواد الأعظم قبل التعريب التدريجي لهم.

اللغة العربية والشعوبية: ظهر في العصر العباسي من المولدين حركة عنصرية وشبه انفصالية ضد العرب تسمى "الشعوبية". وهي وإن كانت في ظاهرها نزعة ثقافية، واجتماعية، إلا أن هذا التيار الفكري قوي، وصار يعمل علانية بالفعل والقول، واستطاع أن يتسلق إلى دواليب السلطة ومراكز النفوذ وصناعة القرار، والقضاء تدريجيا على مجد العرب ومجد اللغة العربية.

ويعرف ابن يعيش الشعوبية قائلا أنهم:" قوم يصَغّرون شأن العرب،،،وقال ابن هبيرة في المحكم: غلبت الشعوبية بلفظ الجمع على جيل من العجم، حتى قيل لمحتقر أمر العرب شعوبي إن لم يكن منهم." مثل الشاعر أبي نواس الذي كان يحتقر أمر العرب في تقاليد الحياة والشعر. ولكنه لم يكن ليحتقر أمر العربية والإعراب. فلم يكن شعوبيا بالمعنى الحقيقي للشعوبية وإن نسبه البعض إليها.

وقد ذكر السيوطي . وهو ليس من العرب بل هو من المعربين . موقف الشعوبية العدائي من العرب والعربية وجميع الثقافة العربية والإسلامية. وذلك في أيام هز العرب ومجد اللغة العربية. حيث اقتضى في واقع الشعوب الإسلامية آنذاك تفوق العنصر العربي أن تهيمن لغة الغالب على لغة المغلوب وهي أيضا لغة الإسلام المفضلة على جميع اللغات والألسنة. فتعربت شعوب إسلامية لسبب أو لآخر. ومن هؤلاء الزمخشري الذي لم يكن عربيا كذلك، فتعرب، وتعلم العربية والاسم، حتى صار من علمائهما المبرزين وعاد فخورا ومعتزا بهما إلى حد جعله يقول: "اللهَ أحمد على أن جعلني من علماء العربية. وجبلني على الغضب للعرب والعصبية. وأبى لي أن أنفرد عن صميم

أنصارهم وأمتاز، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز. وعصمني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين، والمشق بأسنة الطاعنين." ولا ريب ان النزعة الشعوبية كانت نزعة شعبية عامية عرقية يلتف حولها من لم يتعرب لسانه وجنانه ممن لم يتقنوا تعلم اللغة العربية الفصحى ورق دينهم وانحلت أخلاقهم. ثم قويت هذه النزعة وانتشرت وصار لها أنصار يدافعون عن آرائها. ومن بين الآراء التي تلقى هوى واستجابة في نفوس العامة الصد عن تعليم اللغة العربية وعن تعلمها.

يقول الزمخشري وهو من أعرف الناس بالشعوبية وباللغة العربية في بيان موقف الشعوبية من اللغة العربية:"،،،إنهم يجحدون فضلها، ويدفعون خصلها. ويذهبون عن توقيرها وتعظيمها. وينهون عن تعلمها وتعليمها. ويمزقون أديمها. ويمضغون لحمها. فهم في ذلك على المثل السائر: "الشعير يؤكل ويذم". ويدّعون الاستغناء عنها وهم ليسوا في شق منها." وقد ذكرت المصادر أن الشعوبية قد نشأت في العصر العباسي ولم يذكر أي مرجع نهايتها ومآلها. ولا شك لديّ في أن الشعوبية لم تمت. وما زالت هذه النزعة المعادية للغة العربية ولكل ما من شأنه أن يؤدي إلى النهوض بها منتشرة إلى اليوم بأشكال متنوعة في المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية في ظل صراع الهويات الثقافية المتنوعة التي تسعى إلى تعزيز مكانة اللغات القومية أو الأجنبية وإحلالها محل اللغة العربية وخير دليل على ذلك، بل شر دليل على ذلك سياسة التتريك التي قصمت ظهر الخلافة الإسلامية وقضت عليها إلى الأبد.

ومن يدعو اليوم إلى إحياء مجد اللغة العربية إما أن يتهم بأنه قومي، أو أنه أصولي، أو أنه إسلامي. وقد علت الأصوات في الأوساط العلمية والثقافية والسياسية منادية بتعميم وتعليم اللغات الأجنبية، وفي المقابل، فقد خفت، وبحّ، وضعف، صوت المنادين بالتعريب وتعليم اللغة العربية وتعميم استعمالها، خاصة في ظل العولمة الحديثة التي هي الوجه الآخر للاستعمار، وللشعوبية القديمة.

ومهما قيل عن الحركة الشعوبية، وإيجابياتها أو سلبياتها، فإن طائفة من الشعوبيين كانوا كالسوس المدسوس في كيان الدولة العباسية ينخرها من الداخل.

خصائص الهوية الإسلامية: لكل هوية مكوناتها ومميزاتها الخاصة التي تتصف بها. ولابد من التأكيد على أن الهوية الإسلامية هي افضل الهويات وأشرفها وهي هوية نموذجية فاضلة لأنها:

أوّلا: سماوية مؤسسة على قواعد تشريعية شرعية وليست من وضع البشر. وهي من وضع الله سبحانه وتعلى:" صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون." فليست قائمة على الفلسفة والفكر بل على الوحي وفقه الوحي.

وثانيا: من مكوناتها العقيدة الصحيحة والعمل الصالح وفق القرآن والسنة لقوله صلى الله عليه وسلم:" تركت فيكم أمرين ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وسنتي."

وثالثا: تحمل الخير والرحمة والسعادة لجميع المسلمين المحافظين على هويتهم الإسلامية الصحيحة. قال اله تعالى: "وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين."

ورابعا: الإسلام وحده . ممثلا في القرآن والسنة . هو معيار الهوية الإسلامية ومقياسها الصحيح وليس المسلمون حتى وغن توافقت تصرفاتهم مع الإسلام.

وخامسا: المسلمون ليسوا معصومين وهم مسؤولون عن تصرفاتهم ومحاسبون على أعمالهم. والإسلام لا يضمن للمسلمين النجاة من النار يوم القيامة، ولكن يضمن لهم جميعا عدم الخلود فيها، ولهذا أمر الله تعالى المسلمين بالتقوى حق التقوى لتجنب الوقوع في النار، وأمرهم بالموت على الإسلام لتجنب الخلود فيها. قال الله تعالى:" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون."

والهوية الإسلامية كاملة معصومة من الجانب الوضعي التشريعي قال الله تعالى:" اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا." وقوله تعالى:" إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون." وهذا الذكر المنزل المعصوم المحفوظ هو القرآن الكريم الذي" لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد." فالتشريع الإسلامي جاهز كمشروع نموذجي معصوم للتنفيذ والعمل والتطبيق لتشكيل شخصية الإنسان الأفضل وهو الإنسان المسلم، والأسرة الحسن وهي الأسرة المسلمة، والمجتمع الأطهر، والدولة الأعدل. في الأمة المسلمة التي تجتنب الظلم والمنكر والحرام والباطل والأذى وكل ما أبطله الله وحرّمه. فالهوية الإسلامية من الجانب النظري مكتملة وجاهزة وواضحة لا لبس فيها ولا غموض، ولكنها من الناحية العملية التطبيقية تبقى دائما ناقصة ومتفاوتة في التمثيل الذاتي للتشريع الإسلامي والثقافة الإسلامية " وبدون شك نفهم جيدا الذاتية باعتبارها مشروعا وكشيء يوجد دائما في حال التكوين والبناء ولن يكتمل قط. واحد المظاهر الحاسمة في مشروع الذاتية هو الهوية." [(10)]والهوية الإسلامية هي فعلا في عملية تكوين مستمر ولن تكتمل أبدا ولن تصل إلى المستوى المثالي الواقعي الذي بلغته في عهد النبي

والخلفاء الراشدين. هذا العهد الذي يعد العصر الذهبي للإسلام والمسلمين ولن يتكرر أبدا ولكنه يبقى النموذج الأمثل للهوية الإسلامية في رجالها ونسائها وشبابها وصبيانها وافرادها وجماعاتها. والنموذج المثل للثقافة الإسلامية في معارفها وعلومها، على خصوصها وعمومها.

وقد اخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن خير القرون قرنه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. كما أخبر أن اليهود قد افترقوا إلى إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى قد افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة، وأن امته سوف تفترق إلى ثلاثة وبعين فرقة، كلها في النار، سوى فرقة واحدة. وبين عليه الصلاة والسلام مواصفات هذه الفرقة الواحدة الناجية وهي التي تكون فيها مواصفات الهوية الإسلامية الصحيحة، وهم أهل الاتباع وليسوا أهل الابتداع. وهي الفرقة التي يلتزم أفرادها بالقرآن والسنة، أو كما قال عليه الصلاة والسلام:" يكونون على ما انا عليه وأصحابي." فالهوية الإسلامية لا تؤخذ سوى من مصادرها الأولى التي يسميها بعض أعداء الهوية الإسلامية بالقديمة. وأهم هذه المصادر الوحي ممثلا في القرآن والسنة، والقدوة ممثلة في سيرة النبي وأصحابه والتابعين. أما اجتهاد العلماء في كل عصر ومصر، ما وافق منها هذه المصادر فهو مقبول، وما خالفها فهو باطل. وليست كل الأحزاب والطوائف التي توصف بأنها إسلامية ذات هوية إسلامية، فكم رفعت من شعارات إسلامية على أوضاع جاهلية، وكم من حق أريد به باطل. فالتناقض مع الكتاب والسنة يهدم الهوية الإسلامية وغن ادعاها مدعيها وخير مثال على ذلك المنافقون الذين نفى عنهم القرآن الكريم صفة الإسلام ونسبهم إلى الكفر رغم أنهم يعلنون الإسلام ويمارسون شعائره في الظاهر.

هوامش البحث:

---

[1]- معالم التحليل النفسي، ص: 46

[2] -Dictionnaire de la sociologie p118

[3]- المرجع السابق، ص: 118

[4]- إيمانويل رينو، التصورات الأوروبية للهوية، ص: 143

[5]- محمد جواد مغنية، الإسلام والحياة، ص: 123

[6]- صبحي الصالح، الإسلام والمجتمع العصري، دار الآداب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1977.وقال في الهامش: ذكره ابن تيمية في الاقتفاء ص: 80، والسيد الإمام محمد رشيد رضا في الوحي المحمدي ص: 231230

[7]- المجتمع الإسلامي والسلطة، ص: 46

[8]- المرجع السابق ، ص: 45

[9]- المرجع السابق ، ص: 45

[10]- إيمانويل رينو، التصورات الأوروبية للهوية، ص: 167